خمسون عاماً على ملحمة دير ياسين: قرية أمام منظمات صهيون (٧ من ٧)

لماذا اقتحمت العصابات المسلحة القرية؟

وليد الخالدي *

■ سنتوقف في هذه الحلقة الختامية مع بعض الاسهاب عند القضايا الرئيسية التي يثيرها اليمين الصهيوني في صدد ما حدث في دير ياسين وكنا لمحنا اليها في مطلع هذه السلسلة وسنعقب ذلك بتقييم لموقف اليسار العمالي الصهيوني منه ونختتم باستعراض ما جرى لدير ياسين منذ يوم الجمعة في ٩ نيسان (ابريل) ١٩٤٨.

اما القضايا الرئيسية التي يثيرها اليمين الصهيوني فيمكن تناولها تحت عناوين أربعة: أولاً: عدد الضحايا في يوم المعركة. ثانياً: اثر ما حدث في دير ياسين على مجرى القتال في فلسطين في نيسان (ابريل) وأيار (مايو) ١٩٤٨. ثالثاً: ادعاءات الحرص على أرواح النساء والأطفال. رابعاً: الدوافع للهجوم على القرية.

عدد ضحايا دير ياسين

الراسخ في الذاكرة الفلسطينية والعربية والمتواتر الى الأمس القريب في العالم بأسره بما في ذلك اسرائيل والجاليات اليهودية خارجها ان عدد شهداء دير ياسين في حدود ٢٤٥ - ٢٥٠ شهيداً، هذا هو الرقم الذي أعلنته الأطراف المعنية العدة في حينه (اليهودية والبريطانية الرسمية والدولية والفلسطينية والعربية) وهو الرقم الذي أجمع عليه الصحافيون والمؤرخون والمراقبون من مختلف الجنسيات منذ ١٩٤٨ بيد ان المفارقة (وأي مفارقة) ان هذا الرقم ليس هو الرقم الذي قدمه في حينه الطرف الأكثر دراية ومعرفة بالأمر أي الناجون من وجهاء القرية وكبارها.

ويذكر القارئ ان عدد سكان دير ياسين عام ١٩٤٨ كان كما أسلفنا حوالى ٧٥٠ نسمة انقسموا الى ثلاث حمائل وانهم اتسموا بقدر غير مألوف في ريف فلسطين من التماسك في ما بينهم كما كان الزواج بين الحمائل دارجاً شائعاً على نطاق واسع حتى غدا أي فرد في البلدة على علاقة قربة أو نسب بمعظم سائر أهاليها. وهكذا لم يكن خارج قدرة كبار الناجين من الواقعة القيام باحصاء دقيق لمن فقد أو استشهد منهم غير ان تشتت سكان القرية يوم المعركة في أكثر من اتجاه وهول صدمة ما حصل اقتضيا مرور بضعة يام قبل انجاز الاحصاء الذي تم قبل نهاية شهر نيسان ١٩٤٨ وهي الأيام التي ترسخ فيها الرقم ٢٤٠ - ٢٥٠ شهيداً المبالغ فيه وتوالت خلالها الأحداث الجسام من سقوط طبريا (١٨ نيسان) الى سقوط حيفا (٢٢ - ٢٣ نيسان) الى سقوط يافا (٢٥ - ٣٠ نيسان) التي حلت محل دير ياسين في اهتمامات الرأي العام العربي والدولي المباشرة.

اما نتيجة احصاء وجهاء دير ياسين لشهدائها في نيسان ١٩٤٨ فكان في حدود مئة شهيد معظمهم من الشيوخ والنساء والأطفال يضاف اليهم حوالى ١٥ جريحاً جروحهم بليغة. ذكرت «البالستين بوست» اليهودية في عددها الصادر في ١١ نيسان ١٩٤٨ ان عشرة منهم أدخلوا المستشفى الحكومي في القدس وان سبعة من هؤلاء دون الرابعة عشرة من عمرهم يضاف اليهم العشرات المصابون بجروح أقل خطورة.

ظلت معرفة عدد شهداء دير ياسين الحقيقي مقتصرة على الناجين من سكان دير ياسين وذريتهم ومعارفهم وعلى عدد قليل من الباحثين ولم يشق العدد الحقيقي طريقه الى أدبيات ١٩٤٨ الفلسطينية الا في نهاية السبعينات عندما أصدرت جامعة بيرزيت في الضفة الغربية كراساً عن دير ياسين من ضمن سلسلة من القرى الفلسطينية التي دمرتها اسرائيل ذكرت فيه هذا الرقم استناداً الى مقابلات اجراها مؤلفو الكراس مع بعض كبار الناجين من أهالي دير ياسين. وفي هذه الأثناء تكرر ذكر رقم ٢٤٠ - ٢٥٠ شهيداً في أدبيات ١٩٤٨ كافة في مختلف اللغات بما في ذلك الرواية الرسمية الاسرائيلية لحرب ١٩٤٨ التي صدرت عن وزارة الدفاع الاسرائيلية عام ١٩٧٢ باسم «سيفر تولدوت هاهغانا» عندما كانت الحكومة الاسرائيلية ما زالت تحت السيطرة العمالية.

ويتلقف الكاتب اليميني الاسرائيلي ملشتاين ما ذكرته جامعة بيرزيت في كراسها عن عدد ضحايا دير ياسين ويدمجه في محاولته اعادة كتابة تاريخ ١٩٤٨ من منظور يميني ناقد للرواية الاسرائيلية العمالية وبهدف القاء الشك على الرواية العربية بأسرها لدير ياسين مع انه يقر بأن الرقم المبالغ فيه لم يأت أصلاً من الطرف العربي لكن من الطرف اليهودي اليميني ذاته.

وتسهيلاً على القارئ نعيد باقتضاب ما ذكرناه سالفاً (الحلقة الخامسة) من ان أول من ذكر ان رقم الشهداء هو ٢٤٠ شهيداً هو مردخاي رعنان قائد الايتسل (الأرغون) في القدس وكان ذلك في مؤتمر صحافي عقده مساء يوم الجمعة ٩ نيسان بعد توقف القتال واحتلال القرية حضره مراسلو الوكالات الأميركيون. واذاعت الـ «بي. بي. سي» اللندنية الرقم في نشرتها الاخبارية لتلك الليلة وكررت ذكره في الوقت نفسه محطة الاذاعة البريطانية الانتدابية في القدس. ويذكر القارئ ان ممثل الصليب الأحمر الدولي زار دير ياسين يوم الأحد في ١١ نيسان ونقل الى السلطات البريطانية والى الهيئة العربية العليا في القدس ان عدد الضحايا انما هو في حدود ٣٥٠ شهيداً وان الدكتور حسين فخري الخالدي أمين سر الهيئة العربية العليا عقد مؤتمراً صحافياً في اثر لقائه مع ممثل الصليب الأحمر يوم الأحد في ١١ نيسان واعتمد الرقم الأدنى الذي ذكره قائد الأرغون يوم الجمعة وتناقلته عن قائد الأرغون الوكالات العالمية يوم الجمعة والسبت السابقين.

ويروي ملشتاين عن رعنان في مقابلة اجراها معه بعد الواقعة بسنين عدة ان رعنان تقصد يوم الجمعة تضخيم عدد ضحاياه لالقاء الرعب في العرب وانه حسب قول رعنان «نجح» في ذلك وأغلب الظن بالنسبة لنا ان هذا تبرير أو تفسير لاحق رجعي لتضخيم اثر دير ياسين الفعلي على سير القتال في فلسطين عموماً وهو تفسير يتضامن ملشتاين فيه طبعاً مع رعنان بغية تضخيم دور المنظمتين الارهابيتين (الارغون والشتيرن) اليمينيتين في قتال عام ١٩٤٨ مقارنة بدور الهاغانا اليسارية ويقيننا ان الدوافع الحقيقية لتضخيم الرقم كانت أكثر ارتباطاً بالمحادثات السياسية المتزامنة التي كانت تجرى في حينه تحت رعاية اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية لدمج المنظمتين الارهابيتين في قوات الهاغانا كما سنبين بعد قليل.

وبعد فالعبرة ليست في الكم وثمة احداث في الحروب النظامية الأهلية تتخذ كما أسلفنا (الحلقة الأولى) صفة رمزية بصرف النظر عن الكم كما حصل في جنوب افريقيا (شارب فيل ١٩٦٠ SharpVille) وايرلندا الشمالية (الأحد الدموي ١٩٧٢ Bloody Sunday) حيث كان عدد الضحايا الأبرياء لا يتعدى بضعة عشرات.

اما قائمة شهداء دير ياسين حسن العمر والجنس فهي كالآتي:

تصنيف العمر	فئة العمر/ بالسنوات	عدد الشهداء ذكور	عدد الشهداء إناث	المجموع
الأطفال	سنة - خمس	٧	٥	١٢
الصغار	ست - خمس عشرة	٨	١١	١٩
الشباب	ست عشرة - عشرون	٧	٢	٩
	احدى وعشرون - خمس وعشرون	٩	٤	١٣
	ست وعشرون - خمس وأربعون	٩	٧	١٦
الكهول	ست وأربعون - ستون	٩	٨	١٧
الشيوخ	احدى وستون - تسعون	١٠	٤	١٤
المجموع	جميع الأعمار	٥٩	٤١	١٠٠

فتكون نسبة الاناث والأطفال والصغار (دون خمس عشرة سنة) والكهول والشيوخ من الذكور ٧٥ في المئة من مجموع الشهداء في جميع الأعمار من الجنسين.

اثر واقعة دير ياسين على سير القتال في فلسطين في شهري نيسان (ابريل) وأيار (مايو) ١٩٤٨

على اثر قيام الضجة العالمية على ما حدث في دير ياسين وارسال الوكالة اليهودية لبرقية اعتذار وعزاء الى الملك عبدالله في ١٢ نيسان واحتدام حرب البيانات بين الهاغانا من جهة والمنظمتين الارهابيتين ايتسل (الأرغون) وليحي (الشتيرن) من جهة اخرى حول جدوى احتلال دير ياسين العسكرية أخذت بيانات الاخريين تحت اشراف مناحيم بيغن قائد الايتسل الأعلى تركز بدأ بـ ١٤ نيسان ١٩٤٨ على قيمة احتلال دير ياسين العسكرية حين غدا هذا الاحتلال كما أسلفنا (الحلقة السادسة) حسب الرواية اليمينية نقطة تحول مفصلية تساقطت بعدها القرى المجاورة والنائية أمام هجمات الهاغانا.

وتطورت هذه الرواية الصهيونية في ما بعد لتعزو سقوط مدن فلسطين (طبريا وحيفا ويافا) الى دير ياسين والهجرة الجماعية المدينية والريفية الى دير ياسين ايضاً وان هذا وذاك انما سببه تضخيم السلطة الفلسطينية ذاتها لما حصل في دير ياسين اذ انتقل وزر التهجير الجماعي القسري للفلسطينيين عموماً على ايدي الهاغانا والمنظمتين الارهابيتين الأخريين من الجاني الصهيوني الى الطرف الفلسطيني والعربي بسبب سياسة هذا الطرف الاعلامية القصيرة النظر حسب هذه الرواية الصهيونية. والمؤسف ان هذه الرواية الصهيونية شقت طريقها الى العقول والقلوب والأقلام العربية فتوج الجاني والمعتدي بذلك نصره العسكري بجعل ضحيته تتبنى روايته هو عما حدث لها.

ديفيد شلتئيل قائد الهاغانا في القدس.

يهوشع زطلر.

مردخاي رعنان (الى اليسار) ومناحم بيغن عام ١٩٤٨ .

يهوشع غولدشميت.

الملك عبدالله.

والواقع انه رغم الصدمة المعنوية التي احدثتها دير ياسين فان حتى أقرب القرى اليها: عين كارم، وصوبا، وحطاف، والمالحة لم تتساقط تساقط أوراق الخريف كما يدعي بل صمدت لأسابيع عدة بعد احتلال دير ياسين ولم تسقط الا في أواسط تموز (يوليو) ١٩٤٨ عندما استؤنف القتال بعد الهدنة الأولى وبعد ان عجزت جيوش عربية نظامية عن الصمود أمام هجمات القوات الاسرائيلية.

ويذكر القارئ ان الدكتور حسين فخري الخالدي أمين سر الهيئة العربية العليا يروي (الحلقة الخامسة) ان قومندان البوليس في القدس فايز الادريس أكد له استطاعته استرداد دير ياسين وضواحيها بقوات البوليس العربي في المدينة لكن الحكومة البريطانية رفضت طلبه للقيام بذلك فهل هذا يدل على انهيار في المعلومات؟

ومن الأمثلة الأخرى على عدم انهيار معنويات المدافعين عن القدس ان الهاغانا حاولت استغلال ما حدث في دير ياسين لمحاولة اختراق الحصار المضروب حول منطقة الجامعة العبرية ومستشفى هاداسا في القدس الشرقية فأرسلت يوم الثلثاء في ١٣ نيسان قافلة معززة بالمصفحات عبر الأحياء العربية فتصدى لها المجاهدون وقضوا على أربعين من أعضائها ولم ينج من تبقى منهم الا بعد تدخل الجيش البريطاني، اما سقوط طبريا وحيفا ويافا فلا علاقة البتة له بسقوط دير ياسين ولقصته مجال غير هذا المجال.

ومع ذلك فلا شك في ان الأسبوعين الأولين من نيسان ١٩٤٨ شهدا تحولاً نوعياً في ميزان القوى بين الطرفين بيد ان سقوط دير ياسين لم يكن سوى احد مظاهر هذا التحول يضاف الى سقوط القسطل واستشهاد عبدالقادر الحسيني وفشل جيش الانقاذ بقيادة فوزي القاوقجي في احتلال مستعمرة مشمار هائيميل جنوب شرقي حيفا وهي احداث تلت بعضها البعض الآخر بالتتابع خلال أيام قليلة معدودة.

اما السبب العسكري لهذا التحول فكان بدء القيادة السياسية الصهيونية بتنفيذ الخطة «دال» (بالعبرية دالت) في الأسبوع الأول من نيسان (الحلقة الأولى) وهي الخطة الكبرى التي طال اعدادها وكان هدفها احتلال رقعة الدولة اليهودية حسب قرار التقسيم بقوة السلاح واضافة ما أمكن من رقعة الدولة العربية اليها وخصوصاً مدينة القدس وضواحيها ولم يكن سقوط طبريا وحيفا ويافا سوى الناتج لتطبيق خطة دال تباعاً.

ومما لا شك فيه ايضاً ان ما حدث في دير ياسين كان له بالغ الأثر في نفوس القادة العرب. وأشرنا في حلقة سابقة (الحلقة السادسة) الى ان الملك عبدالله اعتبره بمثابة «اعلان حرب من قبل اليهود على شرق الأردن وسائر الدول العربية» وليس من قبيل المصادفة ان تحزم مصر أمرها بعد واقعة دير ياسين بأيام ثلاثة ذلك ان الملك فاروق أبلغ القادة العرب يوم الاثنين في ١٢ نيسان موافقته على اشتراك جيش مصر الى جانب سائر الجيوش العربية في الدخول الى فلسطين عند انتهاء الانتداب البريطاني في ١٥ أيار (مايو) وهو قرار كانت مصر تتردد في اتخاذه الى ذلك الحين وهكذا لم تكن دير ياسين بداية انهيار الجبهة العربية بقدر ما كانت نقطة تحول في موقف الحكومات العربية باتجاه التصميم على التصدي للقوات الصهيونية مهما كانت علات هذا القرار.

ادعاء الحرص على أرواح العزل من النساء والأطفال

شر البلية ما يضحك ذلك ان رواية اليمين الصهيوني التبريرية اللاحقة لواقعة دير ياسين وصلت ذروة الكذب والتدليس بهذا الادعاء بينما تراث منظمة الأرغون الارهابية الدموي ضد العزل تراث عريق يعود الى عشر سنوات قبل دير ياسين وهو أمر مشهود به ومعروف لكل قاص ودان.

فالأرغون هي التي ابتكرت وأدخلت الى المشرق العربي استعمال الألغام الموقوتة والسيارات المفخخة ضد الأهداف المدنية وهي التي دشنت استعمال الألغام هذه في أسواق الخضار ومحطات الباصات الفلسطينية المزدحمة في عامي ١٩٣٨ - ١٩٣٩ في كل من حيفا ويافا والقدس. وهاكم حصاد بعض هذه الأحداث من أرواح العزل خلال فترات قصيرة من هاتين السنتين: ١٦ تموز (يوليو) ١٩٣٨، سوق البطيخ: حيفا، ١٨ قتيلاً، ٨ تموز موقف باصات القدس: ٤ قتلى و٢٧ جريحاً، ١٥ تموز سوق الخضار القدس: ١١ قتيلاً و٢٨ جريحاً، ٢٥ تموز سوق الخضار حيفا ٤٥ قتيلاً و٤٥ جريحاً ، ٢٦ آب (اغسطس) سوق الخضار يافا ٢٣ قتيلاً و٣٠ جريحاً، ٢٦ شباط (فبراير) ١٩٣٩ سوق الخضار حيفا: ٢٥ جريحاً، ٣ حزيران سوق الخضار القدس ٩ قتلى و٤٠ جريحاً، ١٩ حزيران سوق الخضار حيفا ٩ قتلى و٢٤ جريحاً وهكذا.

ثم ان الأرغون هي التي فجرت في يوليو ١٩٤٦ فندق الملك داوود في القدس وكان مقر الحكومة البريطانية ما أدى الى سقوط ٧٥ قتيلاً من المدنيين العزل من الموظفين والزائرين البريطانيين والعرب بما في ذلك حوالى ٢٠ يهودياً وكان ضابط عمليات الأرغون خلال الهجوم على دير ياسين يهوشع غولد شميت هو نفسه الذي قاد الشاحنة الملأى بالمتفجرات التي نسفت الفندق.

وتمحور ادعاء الحرص على أرواح العزل خلال القتال في دير ياسين حول وجود مكبر للصوت على احدى المصفحات التي كان عليها اقتحام القرية وتطورت الرواية الصهيونية حتى أصبح دور مكبر الصوت هو دور «المنقذ» (الحلقة الثانية والسادسة) للنساء والأطفال حيث حثهم حسب هذه الرواية على اجلاء القرية «فأنقذ» بهذه الوسيلة معظم هؤلاء وكان ذلك على حساب التخلي عن عنصر المفاجأة في الهجوم وبالتالي دليلاً على «فروسية» المنظمتين الارهابيتين.

الواقع هو ان دور مكبر الصوت (لو استعمل) كان دور تحطيم الأعصاب والمعنويات المساند للقصف والضرب الناري وهو تكتيك حربي صهيوني دارج ولكنه لم يستعمل في هذه الحالة لسقوط المصفحة في الخندق الذي حفره أهالي دير ياسين وتعطيله (الحلقة الثالثة) ولا علاقة بالتالي لنجاة من نجى من نساء القرية وأطفالها باستعمال مكبر الصوت أو عدم استعماله.

والواقع أيضاً من شهادات الناجين والمراقبين الدوليين بل ومن أفواه قادة المنظمتين الارهابيتين وكذلك من شهادات قادة الهاغانا وضباطها التي أوردناها جميعاً في الحلقات السابقة ان المنظمتين لم ترعيا حرمة لشيخ أو مسنة أو رضيع أو جريح وان اتباعهما لم يتركوا عُرفاً واحداً في التعامل مع المدنيين في الحروب الا وخرقوه فاتخذوا من الأسرى من الشيوخ والنساء والأطفال دروعاً لحماية أنفسهم من نيران المقاومين ورهائن لحمل الجرحى والقتلى من اليهود تحت الرصاص وأغطية لاقتحام منازل البلدة ولم يكتفوا باعدام اسراهم من الرجال وبضرب وشتم وتهديد اسراهم من النسوة وسلبهن من كل ما عليهن من الحلى والأساور والخواتم والنقود ولا بتمزيق آذانهن انتزاعاً للاقراط ولا باستعراضهن في شاحنات في موكب نصر ذهاباً واياباً في احياء القدس اليهودية بل انحدروا الى ما هو أسفل حتى من هذا وذاك بتركهم جثث ضحاياهم من دون دفن ومحترقة جزئياً في الشارع العام في دير ياسين بعد ان اشعلوا النار فيها وفروا من البلدة بما نهبوه منها من غنائم ومؤن، واثاث ومواش.

طبعاً الكلام عن «فروسية» مكبر الصوت كان لاستهلاك الجمهور اليهودي في فلسطين والولايات المتحدة وهو ان دل على شيء فإنما يدل على صفاقة الاعلام والحرب النفسية الصهيونيين ومدى احتقارهم للحقيقة والواقع كما يتجليان في قائمة الشهداء.

دوافع الهجوم على دير ياسين

حرصت ادبيات المنظمتين الارهابيتين التبريرية اللاحقة على التوكيد على أهمية دير ياسين الاستراتيجية تفسيراً لاختيارها هدفاً للهجوم والاحتلال وتثبيتاً لصواب التخطيط العسكري اليميني ودحضاً لتشديد الهاغانا على عدم جدوى احتلالها العسكرية وتحويلاً للأنظار عما اقترف فيها من جرائم وآثام.

وهكذا غدت دير ياسين حسب الرواية اليمينية مسيطرة على احياء القدس اليهودية الغربية وقاعدة أمامية لاقتحامها ومصدر تهديد مباشر للطريق الوحيدة التي تربط القدس بتل أبيب ومحطة حيوية على طريق المواصلات الى القسطل ومركز تجمع للجنود العراقيين والسوريين وراعية لأعمال استفزازية وازعاج مستمر للمستعمرات المجاورة مما جعل احتلالها أولوية عسكرية ملحة فرضت نفسها فرضاً على قادة المنظمتين الارهابيتين.

والواقع ان دير ياسين كانت تقع على تل على بعد ميل واحد من ست مستعمرات تشكل سداً متراصاً يعزلها عن العالم الخارجي حيث ان الطريق الوحيدة اليه السالكة للسيارات كانت تمر وسط احدى هذه المستعمرات (غيفعات شاؤول) والمسافة بينها وبين طريق القدس - تل أبيب (كيلومتران) ووجود مستعمرة سابعة (موتسا) بالمقابل على الطريق الى الساحل يجعلان من المستحيل على دير ياسين السيطرة على هذه الطريق ولم تكن دير ياسين على الطريق الى القسطل بل كان واد سحيق يفصل بينهما والطريق الى القسطل يمر عبر عين كارم وليس عبر دير ياسين وتواجد جنود عراقيين وسوريين في دير ياسين أو جوارها كذب صاف محض، كذلك القول بأنها كانت مصدر ازعاج واستفزاز للمستعمرات القريبة منها ذلك انها بسبب ضعف مركزها الاستراتيجي اختارت الوصول الى تفاهم على عدم التعدي بينها وبين المستعمرات المجاورة (الحلقة الأولى) وهو تفاهم رعته الهاغانا وأطلعت عليه قادة المنظمتين الارهابيتين.

لذلك لم يكن للاعتبارات العسكرية أو الاستراتيجية أي دور في قرار المنظمتين الهجوم على دير ياسين بل كان أهم هذه الاعتبارات كما أسلفنا (الحلقة الثانية) سهولة الوصول الى دير ياسين لقربها وعزلتها والرغبة في المزايدة على الهاغانا نظراً لأن الأخيرة كانت قد بدأت هجومها العام (عملية تحشون ضمن الخطة دال) والطمع بالغنيمة وهو دافع يقر به يهودا لبيدوت أحد كبار قادة الأرغون حيث يقول: «ان الواقع الأساسي كان اقتصادياً ذلك اننا كنا في أمس الحاجة الى الغنائم لتموين قواعد منظمتينا».

موقف القيادة العمالية السياسية والعسكرية من دير ياسين

في الظاهر كان موقف هذه القيادة موقف تنديد واستنكار كما يبدو من برقية العزاء والاعتذار من الوكالة اليهودية الى الملك عبدالله ومن حرب البيانات بين الهاغانا والمنظمتين الارهابيتين (الحلقة السادسة) ومن أدبيات الطرفين حول واقعة دير ياسين منذئذ بيد انه ثمة ثلاث زوايا يجدر بالقارئ العربي ان ينظر منها الى هذا الموقف.

أولاً: اطلع قادة المنظمتين الارهابيتين ديفيد شلتئيل قائد الهاغانا في القدس على نيتهم الهجوم على دير ياسين ووافق شلتئيل على ذلك خطياً في رسالة بتاريخ ٧ نيسان تضمنت تحفظات (الاحجام عن نسف منازل القرية والبقاء فيها حتى لا يدخلها الاغراب) لا تمس جوهر الموافقة، وكان قادة الهاغانا على اتصال مستمر بالمهاجمين طوال المعركة وساهمت قوات الهاغانا المرابطة في المستعمرات المقابلة لدير ياسين في اطلاق النار على المدافعين خلالها وقدمت الهاغانا العون لاجلاء الجرحى والقتلى اليهود ومدت المهاجمين بالذخيرة واشتركت وحدات من البالماخ مدعومة بمصفحات ومدافع هاون ليس فقط في قصف القرية عن بعد بل وفي القتال داخل القرية كما اشتركت هذه الوحدات في نهبها. ورفض شلتئيل اعلام اهالي دير ياسين عن الهجوم على رغم الاتفاق وبيّن في رسالته الى المنظمتين (الحلقة الثانية) ان احتلال دير ياسين كان من ضمن مخططات الهاغانا ذاتها على رغم هذا الاتفاق أيضاً. ومع انه شجب تصرف المنظمتين تجاه جثث ضحاياهما الا انه أصدر أمراً بنسف العديد من هذه الجثث بعد حلول قوات الهاغانا محل قوات المنظمتين في دير ياسين كما انه سمح للمنظمتين بنهب موجودات القرية من مؤن وطعام واثاث ومواش.

ثانياً: يحتوي استنكار القيادة العمالية لأفعال المنظمتين في دير ياسين على قدر وافر موفور من الرياء والمداهنة نظراً لأن الهاغانا والبالماخ نفسيهما كانا مسؤولين في الخفاء عن أعمال مشابهة أو قريبة الشبه في مئات القرى الفلسطينية التي احتلاها حيث لم تصل أضواء الاعلام والرقابة الدولية كما لم تتوان الوكالة اليهودية عن الحيلولة دون وصول ممثلي الصليب الأحمر والسلطات البريطانية والصحافة العالمية الى دير ياسين طوال الأيام التالية المباشرة للمعركة اخفاء لجريمة المنظمتين.

ثالثاً: كان لاستنكار الوكالة اليهودية العلني لما حصل في دير ياسين دافعان سياسيان أكثر مما هما اخلاقيان أولهما الحرص على الاتفاق السري الذي كان عقد مع الملك عبدالله والثاني الرغبة في دغع الأرغون والشتيرن (أي ممثلي اليمين التنقيحي Revisionist) بصبغة الارهاب لاقصاء هذا اليمين عن التركيبة السياسية للدولة اليهودية المقبلة حتى تزداد حصة اليسار العمالي ضمن هذه التركيبة وسيطرته عليها. وبالفعل لعبت «قصة» دير ياسين دوراً أساسياً في ابقاء حزب الحيروت الذي أسسه مناحيم بيغن في ١٥ حزيران عام ١٩٤٨ خارج كل الوزارات الائتلافية بقيادة حزب العمال (المابای) منذ تأسيس الدولة لغاية ١٩٦٧ عندما دعا ليفي أشكول رئيس الوزارة العمالي مناحيم بيغن للانضمام الى الحكومة الائتلافية عشية حرب حزيران.

●●●

يذكر الكاتب الاسرائيلي توم سيغيف ان قسم الاستيطان التابع للوكالة اليهودية أعد في النصف الثاني من سنة ١٩٤٨ قائمة بعشرات القرى العربية تمهيداً لاستيطانها ويزور رجال مكتب الصحة بعد بضعة أيام من ذلك قرية مهجورة للوكالة اليهودية ويعلنوا انه قبل ان يصبح اسكان القرية ممكناً يجب رش المنازل بمادة د. د. ت. ويكتب ممثلو الوكالة اليهودية تقريراً يذكرون فيه ان «ابنية القرية بصورة عامة مبنية بشكل أصيل جميل» والأراضي الزراعية تبلغ مئات الدونمات. و«حرث رجال القرية السابقون هذه الأراضي سنين كثيرة وزرعوا حول البيوت حدائق وأشجار مثمرة» ويُؤخذ القرار بعيد ذلك باستيطان القرية بموافقة رئيس الوزراء العمالي (بن غوريون) ويسكن القرية مستوطنون من بولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا وحتى صيف ١٩٤٩ يتمكن هؤلاء من حراثة ٢٠ دونماً من كروم الزيتون وتسويق ٣٠٠ صندوق خوخ ويبدأون بقطف العنب.

ويُقرر ان يقام في خريف ١٩٤٩ احتفال رسمي لتدشين المستعمرة الجديدة في دير ياسين وان يكون اسم المستعمرة غيفعات شاؤول «ب». ويكتب الفيلسوف اليهودي مارتين بوبر الى رئيس الوزراء عند سماعه بالأمر يطلب «على الأقل تأجيل اسكان القرية حتى تلتئم الجروح... وينبه الى انه من الأفضل ان تبقى حالياً أرض دير ياسين غير مزروعة وان تترك منازلها شاغرة من ان تدنس بعمل تفوق اهميته الرمزية السلبية جدواه العملية بما لا يقاس». ولا يرد بن غوريون على رسالة بوبر فيثابر بوبر في مكاتبة بن غوريون وتتكدس رسائله في مكتب بن غوريون من دون اجابة.

ويحتشد بضع مئات من المدعوين الى احتفال تدشين المستعمرة ويحضر بينهم وزيران من الوزارة العمالية الى رئيس البلدية والحاخامين الرئيسيين (اللذين كانا كما يذكر القارئ قد استنكرا ما حصل في دير ياسين في بيان علني عبرا فيه عن «خجلهما» وشجبهما «لوحشيته»). ويبعث رئيس الدولة حاييم وايزمان برسالة تهنئة وتعزف الفرقة الموسيقية لمعهد الضرير المجاور وتقدم التحية. وهكذا تختزل دير ياسين مأساة فلسطين بأسرها.

●●●

وبعد فإن عدد سكان دير ياسين اليوم يزيد عن أربعة آلاف نسمة موزعين في الضفة الغربية من فلسطين والأردن والمملكة العربية السعودية والكويت وقطر والولايات المتحدة وفي البرازيل ولسان حالهم يقول ونحن نردد معهم:

سأذكر بلدتي ما دمت حياً
واذكر مرجها ثم الشعابا
وأقرئ دير ياسين سلاماً
متى شع الضحى نوراً وغابا
وقارعت الطغاة بيوم نحس
وقد صمدت صموداً لن يعابا

* أستاذ سابق في جامعات اكسفورد (بريطانيا) والاميركية (بيروت) وهارفرد (الولايات المتحدة). عضو اكاديمية العلوم والآداب الاميركية، وأمين سر مؤسسة الدراسات الفلسطينية.